(نسألك الثبات (4)– عوائق الثبات)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 24 – 27]

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7]

عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه أنّه قال: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول في صلاته: **«اللهمّ إنّي أسألك الثّبات في الأمر، والعزيمة على الرّشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم»** [النسائي وهذا لفظه. والترمذي، وأحمد]

أيها الإخوة:

تتحدث خُطَبُ رمضان الأربع عن الثباتِ على الحق، والاستقامة على البرِّ، والصبر على الطاعة، والتمسُّك بالكتاب والسنة.

في زمنٍ كثرت فيه الفتنُ، وزادتْ فيه الشهواتُ وترعْرَعَتِ الشكوكُ والشبهاتُ، فراحَ المسلمُ القابضُ على دينه يبحثُ فيه عن عاصمٍ، ويفتشُ عن مثبِّت.

تحدثتِ الخطبةُ الأولى عن معنى الثبات وأهميته، والخطبتان الثانيةُ والثالثةُ عن عوامل الثبات، وتتحدث خُطبة اليوم عن: **(عوائق الثبات)**

ما الأمورُ التي تُضعفُك أمام الفتن والشهوات؟

ما العوائقُ التي تحولُ بينك وبين الثبات على الحق إذا عَرَضت لك الشبهات؟

ما حيل الشيطان التي يستخدمُها معك؛ ليصيبك بالجزع عند الشدة، والهلع عند الكرب، والضعف أمام الخطيئة والذنب؟

عنوان خطبة اليوم:

(عوائق الثبات)

أيها الإخوة:

عاقبةُ الثبات على الحقِّ الجنة، فهل تعتقدون أنَّ الطريقَ إلى الجنة مفروشٌ بالورود، مذلَّلٌ من كل عقبةٍ كَأَدَاء؟

أبداً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**حجبَتِ النارُ بالشهوات، وحُجِبَت الجنة بالمكاره**» [أخرجه البخاري ومسلم] ولمسلم «**حفَّتْ**» بدل «**حجِبَتْ**».

قال الإمامُ النوويُّ -رحمه الله- في شرح الحديث: (معناهُ لا يصلُ الجنةَ إلا بارتكاب المكاره)

إنَّ أولئك الذين اختاروا الجنة هدفاً، وطريقَ الحق إليها معبراً، واستقاموا على طريقتهم، فلم يغيّروا ولم يبدِّلوا، كانت عاقبتُهم خيراً.

أما الذين خارتْ عزيمتُهم، وضَعُفَتْ إرادتُهم، وأحاطتِ الغِشاواتُ بأبصارِهم، خسروا الدنيا والآخرة، وسيعضُّون على أيديهم من الندم، ولات ساعة مندمٍ.

وجدْتُ عوائقَ الثبات أربعة: (الاعتمادُ على النفس من دون اللجأ إلى الله، وعدم وجود المعين، وقلة العلم، وضعف الإرادة).

أما الأول– فالاعتماد على النفس من دون اللجأ إلى الله تعالى:

فمن اعتمدَ على ماله قلَّ، ومنِ اعتمدَ على علمِه ضلَّ، ومن اعتمدَ على جاهِهِ زلَّ، ومن اعتمد على قوته كلَّ، ومن اعتمد على عبادته مَلَّ.

ومَن اعتمد على الله فلا قَلَّ، ولا ضَلَّ، ولا زَلَّ، ولا كَلَّ، ولا مَلَّ. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36]

فطريقُ الثباتِ صعْبٌ شديدٌ، ولكنْ قُل: ربِّ أعني ولا تُعِن عليَّ.

وصراط الجنةِ محفوفٌ بالمكاره، ولكن اضْرَع إلى ربك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

ودربُ الهدى ليس بالهيّن في زمن الشدائد، ولكن ناجِ ربك وقل:

وإني لمستغْنٍ عن الكونِ دونَكم	وأمَّا إليكم سادتي ففقير
بعُدتم ولم يَبعُد عن القلبِ ذكركم	وغِبتُم وأنتم في الفُؤاد حُضور

فاحذرْ –أخي– أن تتَّكِلَ على نفسِك أو أن تعتمدَ عليها، فهذا عائقٌ من عوائقِ الثباتِ سقطَ فيه كثيرون، وانظر إلى رسول الله يتبرأ من نفسه وحوله وقوته ويناجي ربه في الأزمات والكرب والشدائد؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دَعَواتُ المَكْروب: اللَّهُمَّ رحمتَك أرجو، فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصلِح لي شَأني كلَّه، لا إله إلا أنتَ**» [أخرجه أبو داود].

وأما العائق الثاني– فعدمُ وجودِ المُعين:

لأنَّ السالكَ دربَ الحق بشرٌ يَضعُفُ حيناً، ويقوى آخر، يُسرعُ حيناً ويبطئ آخر، فإنْ وجدَ على الخير أعواناً ثبَّتوه عند الخَوَر، ودعَوا له عند القوة، ذكَّروه إذا نسي، وأعانوه إذا ذكَر.

ألم تقرؤوا قولَ الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 6، 7] لماذا قال الله تعالى: (الصراطَ المستقيم، صراطَ الذين أنعمتَ عليهم)، ولم يقلْ: صراطَ الله، مع أنَّ الصرطَ المستقيم هو صراطُ الله؟.

ذكرَ اللهُ تعالى لسالكِ دربِ الحق إخوانَهُ من السابقين واللاحقين؛ حتى لا تصيبَه الوحشةُ، وحتى يتذكَّر المعين.

فابحثوا –يا أيها الإخوة– عن إخوةٍ في الحق ثقات، عيشوا في أكنافهم، واغدوا وروحوا معهم؛ تصبكم نفحاتُ «**وجبت محبتي**» وتلفحُكم نسماتُ «**يظلهم الله في ظل عرشه**».

مسكينٌ شابٌّ لا أخَ له في الله يُعينُه على الخير في زمنِ الفتنةِ والشدة.

ومسكينةٌ فتاةٌ لا أختَ لها في الله تثبتُها على الحق في زمن الزلزلة والقلقلة.

وأمَّا العائقُ الثالث– فقلةُ العلم:

قال أبو سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه: (أسلمَ رجلٌ من اليهودِ فذهبَ بصرُه ومالُه؛ فتشاءَمَ بالإسلام، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: أَقِلْني! فقال صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ الإسلام لا يُقال**» فقال: إني لم أُصِبْ في ديني هذا خيراً، ذهبَ بصري ومالي وولدي! فقال: «**يا يهوديّ إن الإسلام يَسْبِك الرجال كما تَسْبِك النارُ خَبَث الحديد والفضة والذهب**»؛ فأنزل الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: 11 - 13]

وقال السعدي: (أي: ومن الناس من هو ضعيفُ الإيمان، لم يدخلِ الإيمانُ قلبَه، بل دخلَ فيه عادةً على وجهٍ لا يثبتُ عند المحَن، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي: إن استمرَّ رزقُهُ رغداً، ولم يحصل له من المكاره شيءٌ، اطمأنَّ بذلك الخير، لا بإيمانه. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ من حصول مكروهٍ، أو زوالِ محبوبٍ ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: ارتد عن دينه، ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾)

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: 92]. قال ابنُ كثيرٍ: هذه امرأةٌ خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئاً نقضتْهُ بعد إبرامه.

وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثلٌ لمن نقضَ عهدَهُ بعد توكيده.

فمن الناس من يعبدُ الله تعالى في رمضان، قاطعاً على نفسه الوعودَ والنذور، ثم تراهُ بعد رمضان ينقضُ غزلَه.

ومن الناس مَن يجأَرُ إلى الله تعالى عند الحاجة أو الفاقة، فإذا عافاهُ اللهُ وقواهُ نسيَ ما كان يدعو إليه من قبل.

ومن الناس من يعبد الله في الراحة والدَّعَة فإذا أصابه الأذى انقلب على عقبيه.

وما هذا النقضُ والنكثُ والانقلابُ وعدمُ الثباتِ إلا من الجهلِ وعدمِ اللحاق بمجالس العلم.

فمهما استطعتَ -أيها الأخ والأخت- أن تلحقَ بركب العلماء وأن تزاحمهم بركبتيك في حِلَقِ العلم والذكر فافعلْ؛ لأنَّ من عوائق الثبات قلةَ العلم بالطريق وطولها، والعقباتِ وتنوعِها، والعاقبةِ وحسنِها.

أما العائق الرابع الأخير- فضعفُ الإرادة:

ترى أناساً مقبلينَ على الله تعالى اليوم منصرفين عنه في الغد! سالكين درب الهدى اليوم، ملتمسين غيرَه في الغد! مصاحبين الصالحين اليوم، مفتّشين عن غيرهم في الغد! تضعُفُ إرادتهم وتخورُ عزيمتُهم ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 143]

وما ضَعْفُ الإرادة إلا منَ الانغِماس في متاع الحياة الدنيا، والإغراق في نعيمها، والإغداق على النفس من الشهوات، ولو كفُّوا أنفسَهم ولجمُوا شهواتهم لكان خيراً لهم.

أخرج عَبْدُ الرَّزَّاقِ، في مصنفه بسنده عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ، قَالَ رَجُلٌ: أَوْصِنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ حُرِّقْتَ أَوْ نُصِّفْتَ**»، إنها تربية من النبي صلى الله عليه وسلم على قوة الإرادة وشدة العزيمة.

وأخرج أحمد في مسنده بإسناده عَنْ خَبَّابٍ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا اللهَ؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ بِنِصْفَيْنِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»

إنها تربيةٌ من النبي صلى الله عليه وسلم على قوة الإرادة وشدة العزيمة.

فقوة الإرادة تُعينُ على الثبات، أما الخوَرُ وضعفُ الإرادة والعزيمة فهي عائقٌ من عوائق الثبات.

أيها الإخوة:

هذه هي عوائق الثبات الأربعة (الاعتمادُ على النفس من دون اللجأ إلى الله، وعدمُ وجود المعين، وقلةُ العلم، وضعفُ الإرادة)

وقد سبقت عواملُ الثبات الستة (اللجأ إلى الله تعالى والضراعة إليه، قراءة القرآن الكريم بتدبر، التربية الإيمانية العلمية الواعية، الإكثار من ذكر الله، التزام أمر الله ونهيه، الصحبةُ الصالحةُ لأهل الصبر والثبات).

ختاماً:

اعلموا أن عاقبة الثبات على الحق حسنةٌ، وأنَّ نهايةَ طريقِ لاستقامة على الهدى مُشرِقةٌ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: 30 - 32]

فقولوا: اللهم يا مقلِّبَ القلوب ثبتْ قلوبَنا على دينك، وثبِّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين